القراءة واثرها في تحديد طبقات المعنى

المدرس المساعد
خالد نعيم شناوه
جامعة البصرة – كلية الاداب

إن قراءة النص تعد من المقومات الاساسية في فهم وتحليل ومعرفة ابعاده الدلالية و الجمالية ، وهي التي تحاور اعماقه ، فتلتمس دلالته المتحركة وتتفاعل مع ايحاءاته [١] والقراءة عملية عقلية تشمل تفسير الرموز التي يتلقاها القارئ عن طريق عينيه ، وتتطلب هذه الرموز فهم المعاني ، والربط بين الخبرة الشخصية وهذه المعاني ، وعلية فان القراءة مهارة استقبالية [٢] ونشاط مكشف يختلف باختلاف القراء في لملمة المعنى من النص [٣] .

قيل [٤] ان القراءة لا تخلق شيئاً ولا تضيف شيئاً (للنص المقروء) ، بل انها تسمح لما هو موجود فيه وهذا ما ذهب اليه وليم راي ويقول : أي القراءة عنها " انها الحرية ، ولكنها ليست الحرية التي تخلق الكيان او تدركه بل الحرية التي توافق والتي تقول نعم " [٥] .

وفي حقيقة الامر ، ان قراءة النص ليست عملية تحرر وعدم الالتزام بالمعايير والضوابط الفنية ، وانما قصدوا بذلك حرية التأويل من عدمه ، وهذه هي التي تمثلت بهذا المفهوم الذي تحدث عنه بعض الدارسين . [واذا كانت قراءة النص عملية حرة مجاوزة لجميع الاسس والمعايير لما كان النص الادبي ليكون قابلاً للخلود] [٦] ، وقد قيد بعض الدارسين [٧] تلك الحرية بحرية القارئ وهم لا يقصدون التحرر من الالتزام بالضوابط الفنية او بجعل النص في فوضى لا يخضع للمعايير الفنية فضلاً عن القواعد . وكذلك لا يكون قارئ رمزياً يُعايش التجربة من غير فهم ، [ولا يكون قارئ بنيوي اهميته تكمن في السطحية] ، بل يتحرر من الجبرية التي تقيد النص فضلاً عن البناء السلبي ازاء القيم التي يمثلها .

وان الهدف الذي يسعى اليه القارئ من خلال القراءة – والذي يتضح من خلال تفاعله مع النص وملئ الفراغات الموجودة فيه وكشف الرموز التي تدور في فلكه [٨] – هو المشاركة في صناعة المعنى وتحديد طبقاته لان النص الناضج يجعل من القارئ في عمليات التحليل مبدعاً في الكشف عن جمالياته ودلالاته ، وفي الوقت نفسه يعطي القارئ [حرية اكبر] في تحديد طبقاته الدلالية على اساس من المرجعية التي يتمتع بها ، ولا نعني بالمرجعية الكلمات المقيدة التي يحملها في ذهنه بل المعرفة المكتسبة من جراء معاشرته للنصوص ، وتبينه للسنن الفنية التي تميز جنساً ادبياً عن الاخر [٩] . فضلاً عن الاسلوب . ولا يكتسب هذه المعرفة الا عن طريق الدراية والممارسة ويكون القارئ مدركاً لتوالي النصوص بحيث ينفذ ببصيرته الى النصوص التي تأتي باختلالات جديده على التقاليد الفنية القديمة [١٠] .

وترى اغلب النظريات ان القارئ هو الخالق الحقيقي للمعنى [١١] ، وله في ذلك مذهبان ، الاول ما يسمى بالقراءة الاستنساخية والتي تحرص على ان يكون المتلقي باكبر قدر من الامانة ، اذ تكتفي بالوقوف على حدود التلقي المباشرة والخضوع للنص [١٢] . والثاني ما يسمى بالاستنطاقية والتي تهتم بوعي في انتاج وجه النظر التي يحملها او يتحملها الخطاب ، اذ يمارس القارئ افعال الاختيار ، فتتقدم افكار بعينها وتتراجع افكار غيرها ، او تبرز جوانب وتخفت الضوء المسلط على جوانب اخرى حتى نصل في نهاية الامر الى بناء جديد لافكار العمل الادبي ، ولطريقة التعبير عن هذه الافكار [١٣] .

ان القراءة الاولى (الاستنساخية) تساهم الى حد ما في تحديد طبقة من طبقات المعنى ، اذ يقف القارئ عند مهمة التفسير التقليدي ، الذي يؤدي بدوره الى الثنائية بنيه وبين النص [١٤] . اما القراءة الثانية يتحول فيها التركيز من موضوع النص الى سلوك القراءة [١٥] .

وقد جعل الدكتور ماهر حسين القراءة الاولى قراءةً ذوقية ، والمهم عنده القراءة الثانية التي يحاول فيها القارئ – (المحلل لنص) – ان يتلمس المواضع والعناصر التي تدخل في تركيبه العمل الادبي ، والتي كان من شأنها ان تحدث ما احدثته من اثر في عملية التذوق [١٦] ، وان القيمة الفنية والجمالية لهذا العمل الفني تأتي من خلال النظرة الكلية لمجمل النص وما فيه من تكامل بين الشكل والمضمون (أي دلالة النص) وهذا

يتحقق من خلال عملية النظم [١٧] ، أي ان مهمة الادراك المباشر تشمل المستوى الاول (الشكل) في التعامل مع النص اذ يبدأ القارئ في تفهم الهيكل الخارجي له متمثلاً في معطياته اللغوية والاسلوبية ، وهذه المرحلة من التحليل لا تعد عملاً فنياً في نظر المحللين ، لان العلاقة بين النص والقارئ ما زالت مفصولة ومعزولة بهذا البناء اللغوي ، وهو واقع تحت سيطرة الاشارات والرموز والمفاتيح النصية [١٨] ، وما يتأتى بعد هذا المستوى سوف تتشكل فيه ذاتية القارئ ، اذ يتم الكشف عن عالم اساسي من الخيال والدلالات لم يفطن اليه في المرحلة الاولى ، وبعد هذه المرحلة والانتقال الى المستوى الثاني للقراءة تبدو امام القارئ فراغات او غموض او بقع ابهام ، فعلية ان يستكملها ليكون مشاركاً – الى حد ما – في لملمة وصناعة المعنى [١٩] .

وقراءة النصوص الادبية لابد ان تعتمد عمليتي الاختيار والتوزيع أي مراقبة موقع الكلمة من النص او التركيب ومن ثم موقع التركيب اجمالاً من النص وهذا ما يسمى بالمستوى العمودي [٢٠] .

اذ يقوم القارئ باستنطاق النص من خلال ممارسة الافعال الاختيارية فتتقدم لديه افكار وتتراجع افكار حتى يصل في نهاية الامر الى ذلك البناء الحامل معه للدلالة المطابقة لمجمل السياق الذي تتمثل به ، وهذا ما يسمح به النص الناضج ابداعياً .

واذا ما ذهب القارئ عند كلمة في نص ما فلابد من ان يقف عند الاشارات الافقية التي تنحصر في مدلولها الحرفي اولاً – وهذا يمثل الطبقة الاولى والبسيطة للمعنى [*] – وبعد ذلك يمكن ان تفصح الكلمة عن معاني مفترضة او دلالات متباينة في سياق الحدث الكلامي ، اذ تتخذ الكلمة منحاً وظيفياً ، وهي بهذا المستوى تمثل انزياحاً دلالياً لا يقف عند حدود المعنى المعجمي لها ، وهذا الضرب من التحليل يشكل ظاهرة مهمة في دراسة الظواهر اللغوية التي تقع في دائرة ما يسمى بالمعنى النحوي ، الذي يمثل احدى الوظائف المعنوية الدالة على دور الكلمة في التركيب [٢١] . ولقد عالجت المدرسة التحويلية هذا الجانب من التحليل ، وهو مبنيّ عندها على علاقة البنية العميقة بالنسبة البسيطة ، وهذه العلاقة تختلف من شخصٍ الى اخر فضلاً عن ان عملية التحويل ليست واحدة ولا صورة مكرره عند جميع الناس [٢٢] .

والقراءة في هذا الجزء من التحليل (الاقتصار على الكلمة) لا تعيد انتاج المباني الصرفية طلباً للمعنى ، ولكنها تعتمد العناصر الصوغية التي لها القدرة في اضافة قوة تعبيرية لم تكن موجودة في واقع النص .

أي انك تجد من العناصر ما يتميز بعدم الثبوت والاستقرار أي انه عنصر متحول يعرب عن حركة شبه مستقرة اذ يفصح عن دلالة اخرى تكون بعيدة كل البعد عن دلالته الوضعية او المطابقة ، وهذا يقودنا الى معنى اكثر شمولية من الاول ، او على معنى يقوم على علاقات ثنائية تكون هي اساس الحركة الدالة في النص .

واكتساب النص ذلك البعد الدلالي سببه اعتماد القارئ او المحلل اللغوي المحاور الاتية:

اولاً : ثمة اشارات يرسلها النص تقوم على اساس وحدة مشتركة من العلاقات الثنائية والتي تتجلى من خلال شبكة التقابل بين الكلمات او ما يعرف بالتضاد .

ثانياً : علاقة الكلمة بما يجاورها من العناصر اللغوية بحث تضفي على التركيب ايحاءات اخر ، تكون مطابقة مع ما يدل عليه السياق وهذا ما يتضح عن طريق المجاوزات والكنايات .

ثالثاً : التوسع في معنى الكلمة من حيث البعد الدلالي يساعد في الكشف عن المعنى الباطني في التعبير اللغوي .

رابعاً : ثمة حركة بسيطة في اطار النظام اللغوي لابد من اعتمادها للوصول الى المعنى ، اذ ليس بالامكان الوصول الى طبقة ذلك المعنى عن طريق حركة السياق لانه مبنيّ على مجموعة من الايحاءات المفتوحة وخاصة النصوص الادبية ، لذلك تجد حركة الكلمة في داخل النص هي التي تعين القارئ على تحديد المعنى .

واذا ما اعتمدنا التركيب في عملية التحليل فاننا نجده على ضربين **الاول** : تركيب حيادي يتحمل طبقة واحدة من طبقات المعنى ، و**الثاني** : تركيب منحرف – غير حيادي – يتحمل اكثر من دلالة ، اذ يبتعد المعنى عن خط الالفاظ وهذا لا يعني ان التركيب قد تشكل على نحو عشوائي بل تركيب لغوي حدده طبيعة اللغة ورسومها التي رسمت من قبل .

ويتم ادراك المعنى – في هذا الضرب من التحليل – عن طريق كينونة المادة الاصلية في النص بعد التركيز على العلاقات اللغوية ولاسيما النحوية ، أي انك تبدأ بتحليل عناصر التركيب التي تكون بنية الحدث وطبيعة وصولاً الى بعض الاشارات الدلالية التي تدل على قضية كامنة قد تجمعت حولها مكونات ذلك الحدث الذي خرج بمعناه عن الحيادية .

واذا اعتمد القارئ (المحلل) السياق ، فاننا نجده يقوم على تحديد معنى الوحدات الكلامية وعلى مستويات مميزة في تحليل النص ، فهو الذي يحدد الجملة التي تم نطقها ومن ثم يخبرنا عن اية قضية تم التعبير ، وبعد ذلك يفصح عن القوة الكلامية التي بموجبها تم التعبير عن محتوى القضية (٢٣) .

ويكون للسياق اثر في تلك الحالات ذات العلاقة المباشرة بتحديد ما يقال حسب المعاني المتعددة التي يحملها المعنى الواحد (٢٤) .

ان العناصر اللغوية التي يلتمسها القارئ والتي حددها السياق في عرض المعاني والافكار ، هي التي تكون الفكرة الرئيسية التي يكون لها دور في التوصيل والايضاح والكشف عن معاني ودلالات النص .

وهنالك من العناصر او الوحدات اللغوية التي تمثل اشارة دلالية – (في نظر القارئ) – يكون لها بالغ الاثر في تصحيح مسار النص دلالياً وهذا ما تحاول القراءة ان تقف عنده .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن ان تقول ان القراءة تمتلك من الفاعلية في الكشف عن طبقات المعنى وبهذا تكون جزاءً من عملية التحليل وادراك المعاني الكامنة في الوحدات الكلامية التي تتمثل بنصوص ادبية ناضجة .

وانتخبا جملة من النصوص المقروءة لعلنا نجد ما يبدو منسجماً منها مع ما طرحناه من قبل .

قال العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدَّار عنكم لتقربوا وتكسب عيناني الدموع لتجمدا (٢٥)

إذ علق عليه الشيخ الجرجاني فقال : " بدأ فذّل بسكب الدموع على ما يوجبه من الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ، لان من شأن البكاء أبداً ان يكون أمارةً للحزن ، وان يجعل دلالة عليه وكناية عنه كقولهم " أبكاني وأضحكني " على معنى " ساءني وسَرّني " كما قال :

أبكاني الدهرُ ، ويا ربما أضحكني الدَّهرُ بما يرضي

ثم ساق في القياس الى نقيضه ، فالتمس أن يدل على ما يوجبه دوام التلاقي في السرور بقوله " لتجمدا " وظنَّ أن الجمود يبلغ له في إفادة المسرّة والسلامة من الحزن ، ما بلغ سكب الدمع في الدلالة على الكآبة والوقوع في الحزن .. " (٢٦) .

ان هذا التعليق الذي بدأ به الجرجاني على نص ابن الأحنف ، يمثل أحد المعاني – الطبقة الأولى – التي تقوم على أساس شبكة التضاد او التقابل بين الكلمات اذ سبق ذلك بقوله : " اذا أردت ان تعرف ما حاله بالضدّ " (٢٧) فنظر الى هذا النص . اذ تجد الجمود خلوُّ العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها (٢٨) ، ثم قال : " ... اذا قال : " لتجمدا " فكأنه قال : " أحزن اليوم لئلا أحزن غداً ، وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبداً " (٢٩) ، ويقول الشيخ الجرجاني عن هذا المعنى انه غلطٌ فما أظن (٣٠) . وذلك ان الجمود ان لا تبكي العين مع ان الحال حال بكاءٍ ، ومع ان العين يراد منها ان تبكي ويستراب في ان لا تبكي ولذلك لا نرى أحداً يذكر عينه بالجمود الا وهو يشكوها ويذمها وينسبها الى البخل ، ويَعُدَّ إمتناعها من البكاء تركاً لمعونة صاحبها على ما به من الهم (٣١) ، ونلاحظ الشيخ الجرجاني قد توسع في معنى لفظة " لتجمدا " والذي سوغ له ذلك معرفة ومعاشرته لنصوص الأدبية فضلاً عن ابتعاد او خروج المعنى عن خط الألفاظ في هذا النص .

وربما أراد الشاعر القول انها جمدت من كثرة البكاء ، وان جمودها في هذا الموضع لا يكون عن بخلٍ أبداً .

ثم يقول الشيخ الجرجاني :

معلقاً على قول الشاعر :

الا إنّ عيناً لم تجد يوم واسطٍ عليك بجاري دمعها لجمودُ

فأتى بالجمود تأكيداً لنفي الجود ، ومحال ان يجعلهما لا تجود بالبكاء وليس هناك التماس بكاءٍ ، لان الجود والبخل يقتضيان مطلوباً يبذل او يمنع ، ولو كان الجمود يصلح لان يراد به السلامة من البكاء ويصحّ أن يُدعى به للرجل فيقال : " لا زالت عينك جامدة " . " [٣٢] .

والشيخ الجرجاني لا يكتفي بهذه القراءة فانه يقول مفترخاً :

انه أراد ان يقول : " إنّ اليوم أتجرع غصص الفراق وأحمل نفسي على مرّة – وهذا معنى آخر – وأحتمل ما يؤديني اليه من حزن يفيض الدموع من عيني ويسكبها ، لكي أتسبب بذلك الى وصلٍ يدوم ، ومسرة تتَّصل ، حتى لا اعرف بعد ذلك الحزن أصلاً ، ولا تعرف عيني البكاء ، وتصير في أنْ لا ترى باليةً أبداً كالجمود التي لا يكون لها دمع " [٣٣] الا ان هذه القراءة مرفوضة عند الجرجاني ، لان ذلك في نظره لا يتقسم ولا يستتب لانه يوقعه في التناقض ، ويجعل منه قائلاً " أحتمل البكاء لهذا الفراق عاجلاً لاصير في الامل بدوام الوصل وإتصال السرور في صورة من يريد من عينيه أن تبكي ثم لا تبكي لانها خُلقت جامدةً لا ماءَ فيها " [٣٤] الا ان ذلك من التهافت والاضطراب بحيث لا تنجح الحيلة فيها ، وجملة الأمر انا لا نعلم أحداً جعل جمود العين دليل سرور وأمارة غبطةٍ وكناية عن ان الحال حال فرح [٣٥] .

فكل معنى من تلك المعاني التي ذكرها الشيخ الجرجاني وبما فيها المعاني المفترضة هي طبقات دلالية لنص ابن الأحنف ، وله فيها من السعة .

ومن النصوص الأخر قول الشاعر :

لو كنت مولى فيس عيلان لم تجد عليّ لانسانٍ من الناس درهما

ولكنني ولى قضاعة كُلها فلست أبالي أن أدين وتغرما [٣٦]

يقول ابن الأثير : " فاذا نظرنا الى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحاً وذماً ، : أي انهم كانوا يغنونه بعطائهم أن يدين ، او انه كان يخاف الدّين حذر أن لا يقوموا عنه بوفائه ، ولكن البيت الثاني حقق ان الأول ذم وليس مدح " (٣٧) .

إلا ان محقق الكتاب يعيب على ابن الأثير هذه القراءة وهذا المعنى اذ يقــول : ان المؤلف أخطأ في ذلك خطأ شنيعاً لان الشاعر بعد هذين البيتين قال :

أولئك قومي بارك الله فيهـــــم
على كلِّ حالٍ ما أعفّ و أكرما
تقال الجفانِ والحُلومُ رحاهـــم
رحا الماء يكتالون كيلاً عذمذما (٣٨)

وقد فسر التبريزي البيتين اللذين ذكرهما المؤلف إذ يقول : " لو كان ولائي فـــي قيس عيلان لافتديت بهم في الكف عن الأنفاق لئلا يركبني دين ولكن ولائي في قضـــاعه ، ومهما أخذت عليّ من الدين غرمت عني،فلا أبالي في أي وجه أنفق من وجوه البر"(٣٩) .

ويقول الأستاذ محمد محي الدين : " ولا تظن ان قوله " على كل حال " في البيت الاول مما أنشدناه لك يشير الى انهم بخلاء وانه راضٍ عنهم مع ذلك ، لان معناه ليس كما يسبق الى ذهنك،بل معناه : بارك الله متحوّلين ومتنقلين في أحوال الدهر وتصاريفه"(٤٠) . والنظم في هذين البيتين كانا على خلاف ما ينبغي ، بحيث أدركنا الالفاظ وبقينا في المعنى نطلبه ونتعقبه في كل قراءة .

وقال ابي كبير (٤١) الهذولي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فلما إنقضى ما بيننا سكن الدهرُ

قال فيه ابن الأثير : ان هذا النص يحتمل وجهين من التأويل .

الأول : وهو ما حدده النظم السوي والتأليف المستقيم ، اذ أراد بسعي الدهر سرعة تقضـــي الأوقات مُدة الوصال ، فلما انقضى الوصل عاد إلى حالته في السكون (٤٢) ، وهذه القراءة الأولى .

أما **الثاني** : انه أراد بسعي الدهر سعي أهل الدهر بالنمائم والوشايات ، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا او تركوا السعاية ، وهذا من باب وضع المضاف اليه مكان المضاف " (٤٣) .

وهذه القراءة الثانية ، اذ اعتمد فيها على الكلمة – (أهل الدهر) – في تحديد الطبقة الثانية للمعنى .

وفي نص المتنبي :

لو فطنتْ خيلهُ لنائلهِ لمْ يُرضها أنْ تراه يرضاها

نجد ابن الاثير اكثر وضوحاً وتحديداً في قراءته وتقبله للمعاني غي هذا النص .

اذ يقول : " وهذا يستنبط منه معنيان غير ان :

أحدهما : ان خليه لو علمت مقدار عطاياه ؛ لان عطاياه أنفس منها . لما قبلت ذلك .

والأخر : أن خيلة لو علمت انه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك ، اذ تكره خروجها عن ملكه (٤٤) .

ثم يقول : وهذان الوجهان أنا ذكرتهما وإنما المذكور منها أحدهما (٤٥) ، أي قبل قراءته وتحليله له . ولا نعلم أيهما أسبق من صاحبه .

واذا ما ذهبنا الى قول الشاعر :

قالت : وصكّت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس (٤٦)

فأننا نجد ابن جني قد أعتمد عمليته الاختيار،في قراءته له،أي انه أقام بمراقبة عناصر التركيب في مستواها الأفقي،اذ قال: " فلو قال حاكياً عنها :أبعلي هذا بالرحى المتقاعس – من غير ان يذكر صكَّ الوجه – لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكره ، لكنه لما حكى الحال فقال:وصكَّت وجهها،عُلِم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصور لها،..."(٤٧)إلا ان الآبيات التي تأتي بعد هذا البيت كانت مفسرة له على غير ما ذكر من قوة الإنكار ، اذ قال :

فقلت لها لا تعجبي وتبيّني
بلائي اذا التفت على الفوارسُ
الستُ أرد القرن يركبُ ردعه
وفيه سنان ذو غرارين يابسُ

اذا هابَ أقوامٌ تجشمتُ هول ما
يهاب حُمَياه الالدَّ المُداعــسُ
لَعَمْرُ أبيك الخير اني لخـــــادمُ
لضيفي وأني ان ركبت لفارسُ (٤٨)

وقال ابو الحسن ، ثمة تقاعس وقع ، فكأنه قال وقع التقاعس بـــالرحى ، ولـــيس يريـــد ان يعمل المتقاعس في قوله بالرحى (٤٩) وذلك لمعنى ، ثم يجعل ابن جني بـــاب الافتـــراض مفتوحاً في قراءة هذا النص يقول وهذا مع انك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولـــو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولِعظم الحال في نفس تلك المرأة ، وقد قيل " ليس المخبـــر كالمعاين " ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقولـــه : وصـــكت وجههـــا ، لـــم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها (٥٠) ، ثم يعقب على ذلك بقوله : " وليست كـــل حكايـــة تُروى لنا ، ولا كل خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأصول التابعة له ، المقترنة –كانت به ، نعم ولو نُقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها " (٥١) .

ومن النصوص الأدبية التي تمثلت بأكثر من معنى قول الفرزدق :

أنا الذّائدُ الحامي الذّمار وإنما
يدافع عن أحسابهم أنا او مثلي (٥٢)

اذ يقول عنه الشيخ الجرجاني – وقد أعتمد الجانـــب او المســـتوى النحـــوي فـــي قراءته لهذا النص – " واذا أستبنت هذه الجملة ، عرفت منها أن الذي صـــنعه الفـــرزدق في قوله : " انما يدافع ... " شيء لو لم يصنعه لم يصحّ له معنـــى . ذاك لان غرضـــه أن يخص المدافِع لا المدافَع عنه ... " (٥٣) .

ولقد أفصح الشيخ الجرجاني من المعنى الأول بقوله : لو قال " إنما أدافـــع عـــن أحسابهم " لصار المعنى أنه يخص المدافع عنه ، وانه يزعم أن المدافعة منـــه تكـــون عـــن الاحسابهم لا عن احساب غيرهم كما يكون اذا قال : " وما أدافع الا عن احسابهم " (٥٤) ثـــم يقول : " وليس ذلك معناه ، انما معناه ان يزعم ان المدافع هو لا غيره ... " (٥٥) .

والمعنى عند أبي علي الفارسي ما يدافع عن احسابهم الا انا او مثلـــي (٥٦) وبعـــد هذه القراءة يذهب الشيخ الجرجاني الى توظيف النحو فـــي تحديـــد المعنـــى اذ يقـــول : " وجملة الامر ان الواجب ان يكون اللفظ على وجه الاختصاص فيه للفـــرزدق ، وذلـــك لا يكون الا بأن يقدم " الاحساب " على ضميره ، وهو لو قال : " انما أدافع عـــن احســـابهم "

إستكن ضميره في الفعل ، فلم يتُصوّر تقديم " الاحساب " عليه ولم يقــع " الاحســاب " الا مؤخراً عن ضمير الفرزدق ، واذا تأخرت أنصرف الاختصاص اليها لا محالة " [٥٧] .

ومثله قول الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتُها ما قطّر الفــــرس الا انـــا

واذا ما اعتمدنا الكلمة المفردة فأننا نجد لها أثر في تحديد طبقة المعنى ، وهذا ما سيتضــح من خلال قراءة الشيخ الجرجاني لقول الشاعر :

أيقتلني المشرفيَّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ [٥٨]

يقول : " فاذا قال " أتفعل " كان المعنى على انك أردت ان تقرره بفعل هو يفعله ، وكنــت لمن يوهم انه لا يعلم بالحقيقة ان الفعل كائن ... " [٥٩] ، فيقول : " فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل ، وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعهُ " [٦٠] ومدار هذا الأمر هــو المبنــى " أيقتلني " ، وقد يظنُّ الظان انه يجوز ان يكون في معنى – وهذه الطبقة الثانية – انه لــيس بالذي يجئ منه ان يقتل مثلي ، ويتعلق بانه قال قبل :

يغطُّ غطيط البكر شدّ خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتالِ

ولكنه اذا نظر علم انه لا يجوز ، وذاك لانه قال : " والمشرفي مضاجعي " فذكر ما يكون منعاً للفعل ، ومحال ان يقول " هو ممن لا يجئ منه الفعل " ثم يقــول " أنــي أمنعــه " – بدليل عدده التي رافقته – لان المنع يتصور فيمن يجئ منه الفعل [٦١] .

ومن ذلك ايضاً قول الشاعر :

غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خالاً [٦٢]

قال الشيخ الجرجاني " قد ترى في أول الأمر ان حَسنه أجمع في ان جعل للــدهر "وجنة" وجعل البنية " خالاً " في الوجنة " [٦٣] وهذا هو المعنى الظاهري والقــراءة هنــا قراءة ذوقية ، ثم يقول : " وليس الامر على ذلك فان موضع الأعجوبــة فــي ان اخــرج الكلام مخرجه الذي ترى وان أتى " بالخال " منصوباً على الحال من قوله " فبناها " ."[٦٤]

ثم يقول : " افلا ترى انك لو قلت : " وهي خال في وجنة الدهر " لوجدت الصورة غير ما ترى " (٦٥) .

ونحن نلتمس المعاني في قراءات الشيخ الجرجاني نلاحظ اعتماده لكل مكونات التركيب في عملية القراءة وفي كافة المستويات ، اذ تجد منها ما يكون في قراءاته الذوقية وهو يتحسس مواطن الصنعة والإبداع،وما يكون في قراءاته الموضوعية وأثرها الدلالي .

ومن النصوص الأخرى قول البحتري :

شجو حُسّادٍ وغيظ عِدَاهُ أن يرى مبصرُ ويسمع واع

المعنى : ان يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره واوضافه ، ولكنك تعلم على ذلك انه كأنه يسرق عِلْم ذلك من نفسه ، ويدفع صورته عن وهمه ، ليحصل له معنى شريف وغرض خاص . وذاك انه يمدح خليفة، وهو المعتز ، ويعرض بخليفةٍ وهو المستعين ، فأراد ان يقول : ان محاسن المعتز وفضائله ، المحاسن والفضائل يكفي فيها ان يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يُعْلَم انه المستحق للخلافة والفرد الوحيد الذي ليس لاحد ان ينازعه مرتبتها ، فآنت ترى حسادة وليس شيء أشجى لهم وأغيظ ، من علمهم بأن هاهنا مبصراً يرى وسامعاً يعي ، حتى يتمنون ان لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها ، وأذن يعي معها ، كي يخفى مكان إستحقاقه لشرف الإمامة ، فيجدوا بذلك سبيلاً الى منازعته إياها " (٦٦) .

وفي قول بعض الأعراب :

اللّيل دَاج كنفاً جلباً بـه والبين محجورُ على غُرابهِ

يقول : " ليس كلّ ما نرى من الملاحة ، لان جعل الليل جلباباً وحَجَر على الغراب ، ولكن في ان وضع الكلام الذي ترى ، فجعل " الليل " مبتدأ و (داج) خبراً له ، وفعلاً لما بعده وهو " الكنفان " وأضاف " الجلباب " الى ضمير " الليل " ولان جعل كذلك " البين " مبتدأ وأجرى محجوراً خبراً عنه ، وان أخرج اللفظ على " مفعول " يبين ذلك انك لو قلت : وغراب البيت محجور عليه ، او : قد حُجر لي غراب البيت ، لم تجد هذه الملاحة ، وكذلك لو قلت : " قد دجا كنفا جلباب الليل " لم يكن شيئاً " (٦٧) .

وما يتعلق بالقراءة الذوقية تعليقه على قول الشاعر :

سالت شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

يقول انه توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجد الاستعارة قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك مؤازرته لها ، وان شككت فاعمد الى الجاريين والظرف ، فأزل كلاهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فقل : " سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا انصاره " ثم النظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ؟ وكيف تُعدم أريحّيتك التي كانت ؟ وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها " (٦٨) .

اما قراءته الاخرى فقد خلصت الى ما معناه " انه مطاع في الحي وانهم سيرعون الى نصرته ، وانه لا يدعوهم لحرب او نازل خطب الا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من هنا وهنا ، وتنصب من هذا المسيل وذلك حتى يغصُّ به الوادي ويطفح منها " (٦٩) .

ويقول ان هذا البيت فيه من الغرابة ليس في مطلق " سال " ولكن في تعديته بعلى و (الباء) وبان جعله فعلاً بقوله " شعابُ الحي ، ولولا هذه الامور كلها لم يكن هذا الحسن . وهذا المواضع يدقّ الكلام فيه " (٧٠) .

إما التباين في القراءة عند المعنين (٧١) بها : فأنه يؤثر الى حد ما في تحديد المعنى وعدم أستقراره في نظر المتلقي . وقد روي عن عنبسه بن معد ان انه قال : قدم ذو الرّمة الكوفة فوقف بنشد الناس بالكناسة قصيدته الحائية التي منها (٧٢) :

هي البُرْءُ والاسقام والهمُّ والمنى وموت الهوى في القلب منّي المبرَّحُ
وكان الهوى بالنأي يُمْحَى فيمَّحي وحُبّك عندي يستجدّ ويربحُ
اذا عَيَّرَ النّأيُ المحُبّينَ لم يكد رسيسُ الهوى من حب مَيّه يبرح

قال : فلما انتهى الى هذا البيت ناداه ابن شبرمه (عبد الله قاضي (الكوفة)) : ياغيلان ، أراه قد برح !

قال : فشنق ناقته وجعل بتأخر بها وبفكرّ ، ثم قال :

اذا غيرَّ النأي المحبين لم اجد رسيس الهوى من حب ميه يبرحُ

قال : فلما انصرف حَدّثت ابي : قال : أخطأ ابن شبرمه حين انكر على ذي الرّمه ما انكر ، واخطأ ذو الرمه حين غير شعره لقول ابن شبرمه ، انما هذا كقوله تعالى " ظلماتُ بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد براها " [النور / ٤١] .
وانما هو : لم يراها ولم يكد (٧٣) .

ويقول الشيخ الجرباني المعنى في بيت ذي الرمه على ان الهوى من رسوخه في القلب وثبوته فيه وغلبته على طباعه ، بحيث لا يتوهم عليه البراح وان ذلك لا يقارب ان يكون ، فضلاً عن ان يكون ، كما تقول : " اذا سلا المحبُّون وفتروا في محبتهم لم يقع لي في وهم ، ولم يجر مني على بال : انه يجوز على ما يشبه السّلوة ، وما يعدّ فترة ، فضلاً عن ان يوجد ذلك مني واصير اليه " (٧٤) .

وعلى ما تقدم تجد ثمة تبايناً في معنى القراءتين فضلاً عن قراءة الشاعر نفسه ، وعلى هذه القراءة يضيف الشيخ الجرباني نكته وهي أن " لم يكد في الاية والبيت واقع في جواب " اذا " والماضي اذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل ، كان مستقبلاً في المعنى ... واستحال ان يكون المعنى في البيت او الآي على الفعل قد كان ، لانه يؤدي الى أن يجيء " بلم افعل " ماضياً صريحاً في جواب الشرط ... وذلك محال " (٧٥) .

ومن النصوص الادبية التي تعددت قراءتها قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كلّ حاجة ومسّح بالاركان من هو ماسحُ
اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطحُ (٧٦)

يقول ابن جني : " فقد نرى الى علوّ هذا اللفظ ومائه وصقاله وتلامح أنحائه ، ومعناه مع هذا ما تحسّه وتراه : انما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الابل .. " (٧٧) ثم يقول : قوله " كل حاجة " ما يفيد منه اهل النسيب والرقة وذوو الاهواء والمقه ، ما لا يفيد غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ، الا ترى ان من حوائج " منّى " اشياء كثير غير ما الظاهر عليه ، والمعتاد فيه سواها ، لان منها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي ... " (٧٨) والمعنى عند الجرجاني هو : " قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها .. " (٧٩) .

ويقول الجرجاني ثم نبه بقوله : ومسح بالاركان من هو ماسح . على طواف الوداع الذي هو اخر الامر ، ودليل المسير [٨٠] .

اما قوله : اخذنا بأطراف الحديث بيننا

" فوصل بذكر مسح الاركان ، ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان ثم دل بلفظه " الاطراف " على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، او ما هو عادة المتطرفين من الاشارة والتلويح والرموز والايماء ، وانبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الاصحاب ، وانسبة الاحباب وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجاء حسن الايات وتنسم روائح الاحبة والاوطان وستماع التهاني والتحايا من الخلان والاخوان .. " [٨١] .

الا ان لفظة (اطراف الحديث) عند ابن جني تفيد تقييد الحديث بعيداً عن المرسل اذ يقول : " ان في قوله (اطراف الحديث) وحياً خفياً ورمزاً حلواً ، الا نرى انه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبّون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمّون ، من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح ... " [٨٢] .

اما قوله : وسالت بأعناق المطي الاباطح .

يقول عنه الجرجاني في كتابه اسرار البلاغة : " اذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيلُ به الاباطح ، وكان في ما يؤكد ما قبله ، لان الظهور اذا كانت وطيئه وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً " [٨٣] ثم قال باعتاق المطي ولم يقل بالمطي لانه السرعة والبطء يظهران عالياً في اعناقها ، وبين امرهما وهو اديها وحدودها ، وسائر اجزائها تستند اليها في الحركة ، وتتبعها في الثقل والخفة [٨٤] .

ويقول عنها في دلائل الاعجاز انها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة وكانت في لين وسلاسة حتى كأنها كانت سيولاً وقعت في تلك الاباطح فحرت بها [٨٥] ويقول وليس الغرابة في ما قال ، ولكن الدقة واللطف في خصوصية افادها ، بأن جعل " سال " فعلاً للاباطح ، ثم عدّاه بالباء ، بان دخل الاعناق البين : فقال : (بأعناق المطيّ) ولم يقل (بالمطي) ولو قال : (سالت المطي في الاباطح) لم يكن شيئاً [٨٦] .

وانت تتلقى هذه النصوص او هذه القراءات التحليلية تجد الذين قاموا على هذا العمل ، وجاءوا بمعان ودلالات تنسجم مع حركة النص ومدى قابليته للقراءة ، قد عمد بعضهم على ما تعين لديه في النص من علاقاته ودلالاته التي تنطلق من المستوى المعجمي حيناً والمستوى النحوي حيناً والمستوى الدلالي حيناً اخر ، حيث اللفظ يخدم التراكيب ، كما يخدم التراكيب اللفظ سواء اكان ذلك على وجه الحقيقة ام المجاز [٨٧] ، وبعضهم الاخر ذهب يستنطق النص ويستخرج كل ما يتحمله من طبقات دلاليه آخذاً في الاعتبار كل تفصيلات النص فضلاً عن علاقاته بالسياق اللغوي والمقام المقالي .

الهوامش

١- ينظر : النقد والابداع الادبي: ١٥٦ ، (ماجد السامرائي) ، م : (أوراق) ، ع١٠ ، لسنة ١٩٩٨ .

٢- ينظر : القراءة الصامته والقراءة الجهرية : ١٦٦ (سامية كاظم سهيل) م : اداب مستنصرية ، ع (٢٠ – ٢١) لسنة ١٩٩١ .

٣ – ينظر : نظرية التلقي : ٣٥ (احمد ابو الحسن) .

٤ – ينظر : المعنى الادبي : ٢١ .

٥ – المصدر نفسه : ٢١ .

٦ – ينظر : النص الادبي : ١٢٣ .

٧ – محمود عباس ، ينظر : قراءة النص وجماليات التلقي : ٢٠ .

٨ – ينظر : قراءة النص : ٢٣ .

٩ – ينظر : نظرية التلقي : ٢٦ (احمد ابو حسن) .

١٠ – ينظر : المصدر نفسه : ٢٦ .

١١ – ينظر : نظرية التلقي : ٢٨ (بشرى موسى) .

١٢ – ينظر : النص نحو قراءة نقدية : ١٩٢ .

١٣ – ينظر : النص نحو قراءة نقدية : ١٩٢ .

١٤ – ينظر : قراءة النص : ٢١ (محمود عباس) .

١٥ – ينظر : المصدر نفسه : ٢١ .

١٦ – ينظر : رؤية فنية في دراسة النص : ١٠ .

١٧ – ينظر : الشكل والمضمون : ٨٠ – ٨١ .

١٨ – ينظر : قراءة النص : ٢٢ .

١٩ – ينظر : قراءة النص : ٢٣ .

٢٠ – ينظر : مفهوم المعنى دراسة تحليلية / ٦٥ – ٧٠ – وعلم الدلالة : ٧٩ – ٧٠ .

(*) يسمى تعبيراً نصياً او قطعياً اذ يدل على معنى واحد .

٢١ – ينظر : منهج التحليل اللغوي في النقد الادبي : ٢٤٢ .

٢٢ – ينظر : منهج التحليل اللغوي في النقد الادبي : ٢٥٠ .

٢٣ – ينظر : اللغة والمعنى والسياق : ٢٢٢ .

٢٤ – ينظر : اللغة والمعنى والسياق : ٢٢٢ .

٢٥ – دلائل الاعجاز : ١٧٦ .

٢٦ – المصدر نفسه : ١٧٦ .

٢٧ – دلائل الاعجاز : ١٧٦ .

٢٨ – دلائل الاعجاز : ١٧٦ – ١٧٧.

٢٩ – دلائل الاعجاز : ١٧٧ .

٣٠ – دلائل الاعجاز : ١٧٧ .

٣١ – دلائل الاعجاز : ١٧٧ .

٣٢ – دلائل الاعجاز : ١٧٧ .

٣٣ – دلائل الاعجاز : ١٧٨ .

٣٤ – دلائل الاعجاز : ١٧٨ .

٣٥ – دلائل الاعجاز : ١٧٨ .

٣٦ – المثل السائر : ١ / ٦٤ .

٣٧ – المثل السائر : ١ / ٦٤ .

٣٨ – ينظر كلام المحقق : ١ / ٦٤ ، الهامش .

٣٩ – المثل السائر : ١ / ٦٤ . الهامش .

٤٠ – المثل السائر : ١ / ٦٤ . الهامش .

٤١ – المثل السائر : ١ / ٥٦ .

٤٢ – ينظر المثل السائر : ١ / ٥٦ .

٤٣ – المثل السائر : ١ / ٥٦ .

٤٤ – المثل السائر : ١ / ٥٦ .

٤٥ – الخصائص : ١ / ٢٦٠ .

٤٦ – الخصائص : ١ / ٢٦٠ .

٤٧ – الكامل : ٧٦ – ٧٧ .

٤٨ – ينظر الكامل : ٨٠ .

٤٩ – ينظر الخصائص : ١ / ٢٦٠ .

٥٠ – الخصائص : ١ / ٢٦٠ .

٥١ – دلائل الاعجاز : ٢١٥ .

٥٢ –المصدر نفسه : ٢١٥ .

٥٣ – دلائل الاعجاز : ٢١٥ .

٥٤ – دلائل الاعجاز : ٢٢٣ وينظر حسن التوسل في صناعة الرسل : ١٧٦ .

٥٥ – دلائل الاعجاز : ٢١٥ .

٥٦ – دلائل الاعجاز : ٢٢٨ .

٥٧ – دلائل الاعجاز : ١٢١ .

٥٨ – ينظر : دلائل الاعجاز : ٨٣ .

٥٩ – ينظر : دلائل الاعجاز : ٨٣ .

٦٠ – دلائل الاعجاز : ٨٣ .

٦١ – ينظر دلائل الاعجاز : ٨٤ .

٦٢ – دلائل الاعجاز : ٧٤ .

٦٣ – دلائل الاعجاز : ٧٤ .

٦٤ – دلائل الاعجاز : ٧٤ .

٦٥ – دلائل الاعجاز : ٧٥ .

٦٦ – : ١٠٦ – ١٠٧ .

٦٧ –دلائل الاعجاز : ٧٤ .

٦٨ –دلائل الاعجاز : ٧٢ .

٦٩ –دلائل الاعجاز : ٥٦ ، وينظر حسن التوصل : ١٤٤ .

٧٠ –دلائل الاعجاز : ٥٦ – ٥٧ .

٧١ –ينظر النص وتجليات التلقي : ٢١ – ٢٧ .

٧٢ –ينظر دلائل الاعجاز : ١٨٠ .

٧٣ –دلائل الاعجاز : ١٨١ .

٧٤ –دلائل الاعجاز : ١٨١ .

٧٥ –دلائل الاعجاز : ١٨٢ .

٧٦ –ينظر : الخصائص : ١ / ٢٣٨ ، ودلائل الاعجاز : ٥٥ .

٧٧ –الخصائص : ٢٣٩ .

٧٨ –المصدر نفسه : ٢٣٩ .

٧٩ –اسرار البلاغة : ١٦ .

٨٠ –اسرار البلاغة : ١٧ .

٨١ –اسرار البلاغة : ١٧ .

٨٢ –الخصائص : ١ / ٢٤٠ .

٨٣ –اسرار البلاغة : ١٧ .

٨٤ –المصدر نفسه : ١٧ .

٨٥ –دلائل الاعجاز : ٥٦ .

٨٦ –دلائل الاعجاز : ٥٦ .

٨٧ –ينظر : النص وتجلياته : ٢٧ .

المصـــــــادر

١. اسرار البلاغة في علم البيان : للامام عبد القاهر الجرجاني . علق حواشيه السيد محمد رشيد رضا ، الطبعة الاولى . دار الكتب العلمية . بيروت: ١٤٠٩ – ١٩٨٨ .

٢. الخصائص : لابن جني أي الفتح عثمان ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي الطبعة الثانية : دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣ م .

٣. حسن التوسل الى صناعة الترسل : شهاب الدين محمود الحلبي : تحقيق اكرم عثمان يوسف . دار الحرية – بغداد ١٩٨٠ .

٤. دلائل الاعجاز في علم المعاني ، للامام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق : عبد الحميد هنداوي . الطبعة الاولى – دار الكتب العلمية – بيروت : ١٤٢٢ – ٢٠٠١ .

٥. رؤية فنية في دراسة النص الادبي ، د. ماهر حسين فهمي ، مجلة حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد (٤) السنة ١٩٨١ .

٦. الشكل والمضمون وجه نظر في النقد الخليجي ، د. محمد عبد الرحيم ، مجلة حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد (٥) لسنة ١٩٨٢ .

٧. علم الدلالة : احمد مختار عمر – مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع – الطبعة الاولى – الكويت ١٩٨٢ .

٨. القراءة الصامته والقراءة الجهرية (سامية كاظم سهيل) مجلة كلية الاداب – المستنصرية ، العدد (٢٠ – ٢١) لسنة ١٩٩١ .

٩. قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب العربية الحديثة ، د. محمود عباس عبد الواحد ، الطبعة الاولى ١٩٩٦ دار الفكر العربي .

١٠. اللغة والمعنى والسياق لجون لانيز ترجمة : عباس صادق الوهاب – مراجعة يؤيل عزيز – دار الشؤون الثقافية – بغداد – ١٩٨٧ .

١١. المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، لابن الاثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – صيدا بيروت .

١٢. المعنى الادبي من الظاهرانية الى التفكيكة ، وليم راي ، ترجمة د. يؤيل يوسف .

١٣. مفهوم المعنى دراسة تحليلية – عزمي اسلام – الكويت ، جامعة الكويت : ١٩٨٥ .

١٤. منهج التحليل اللغوي في النقد الادبي ، د. سمير شريف استيتيه ، مجلة اداب مستنصرية . ج١٦ ١٩٨٨ م .

١٥. النص الادبي وقضاياه عند ريفاتار ، محمد هادي الطرابلسي مجلة فصول ٤ ، ١٩٨٤ .

١٦. النص نحو قراءة نقدية ابداعية لارض محمود درويش : د. اعتدال عثمان مجلة فصول.

١٧. النص وتجليات التلقي ، د. سالم عباس خدادة جامعة الكويت ، الحولية العشرون – الرسالة السابعة والاربعون بعد المئة . ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .

١٨. نظرية التلقي اصول وتطبيقات : د. بشرى موسى صالح: دار الشؤون الثقافية .

١٩. نظرية التلقي اشكالات وتطبيقات : د . احمد ابو الحسن مجلة : كلية الاداب والعلوم الانسانية (الرباط) ١٩٩٣ .

٢٠. النقد والابداع الادبي ، د. ماجد السامرائي مجلة (اوراق) رابطة الكتاب الاردنيين العدد (١٠) ١٩٩٨ .